

قراءة في كتاب

السنن التاريخية في القرآن الكريم

عند الشهيد الصدر

«السيد د. علي محمد جواد فضل الله

حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ»- (الرعد: ١١).

٥. المترفون أوّل المعاندين: قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (سبأ: ٣٤-٣٥).

ومن السنن أيضاً، علاقة النبوة على مر التاريخ بالمترفين والمسرّفين في الأمم والمجتمعات. فهذه العلاقة السلبية بينهما ليست وليدة صدفة، بل هي في حقيقتها تعاكس وتناقض بين موقع النبوة المصلح وموقع المترف المفسد، فلا يلتقيان على مر التاريخ.

٦. هلاك المجتمع: ومن السنن التي يؤكدها القرآن الكريم تلك العلاقة المطردة بين الظلم الذي يسيطر على المجتمع والتسبّب بهلاكه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾- (الإسراء: ١٦-١٧).

٧. الاستقامة ووفرة الخيرات: ثمة علاقة طردية وسنة تاريخية بين الاستقامة وتطبيق أحكام الله سبحانه من جهة، ووفرة الإنتاج والخيرات من جهة أخرى، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِّنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾- (المائدة: ٦٦)، وفي آية أخرى، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَن أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾- (الأعراف: ٩٦).

■ **التدبّر للخروج بسنن كونية**

يؤكد القرآن الكريم وجود هذه السنن التاريخية في آياته التي حثّت على التدبّر في الحوادث التاريخية الماضية، من أجل تكوين نظرة استقرائية؛ والخروج بنواميس وسنن كونية للساحة التاريخية، يقول تعالى في هذا المجال: ﴿أَفَلَمْ يَسيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾- (يوسف: ١٠٩)، ويقول تعالى أيضاً: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُ الْفُطُلَةُ فِيهَا مُنَادٍ مَّشِيدٌ﴾ أَفَلَمْ يَسيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾- (الحج: ٢٥-٢٦).

انطلاقاً ممّا تقدّم، يرى الشهيد السيّد الصدرسيّد أنّ النظرية القرآنية في السنن والنواميس التاريخية تُعدّ فتحاً عظيماً للقرآن الكريم. فقد أكّد هذا المفهوم وكشف عنه، وقاوم النظرة العفوية الاستسلامية في تفسير الأحداث التاريخية التي تفسّر التاريخ تارةً على أساس الصدفة، وتارةً أخرى على أساس القضاء والقدر والاستسلام لأمر الله سبحانه وتعالى. من هنا، نبّه القرآن الكريم العقل البشري إلى هذه الحقيقة، كي يستطيع الإنسان أن يكون فاعلاً ومؤثراً، بالتالي، متحكماً في هذه القوانين بدلاً من تحكمها فيه.

وهكذا، فقد مهد هذا الفتح القرآني إلى تنبيه الفكر البشري إلى هذه الحقيقة، حيث جرت

تناول الشهيد السيّد الصدرسيّد موضوع فلسفة التاريخ من خلال عملية استنطاقية للقرآن الكريم كي يقف على النظرية الإسلامية الأصلية في ما يتعلق بالتاريخ وحركته وسننه، فتساءل: هل للتاريخ البشري سنن وقوانين قرآنية تتحكم في مسيرته وحركته وتطوره؟ وما هي تلك السنن؟ وما هي العوامل الأساسية في نظرية التاريخ؟ وما هو دور الإنسان فيها؟ وإذا كانت الظواهر التي تزخر بها مختلف المساحات، من فلكية وفيزيائية ونباتية وغيرها، تتركز على سنن وقوانين وضوابط تحكمها أو تتحكم بها، فهل لهذه الظواهر على الساحة التاريخية قوانين وسنن تحكمها أو تتحكم بها كما هو الحال في مختلف الساحات الأخرى؟

■ **الكون عامر بالسنن الإلهية**

يرى الشهيد السيّد الصدرسيّد حقيقة أنّ الساحة الكونية عامرة بقوانين وسنن كما هو الحال في الساحات الكونية الأخرى:

١. أجل محتوم: بين القرآن الكريم هذه الحقيقة بأشكال وأساليب متعدّدة ومختلفة؛ فنجد أنّ ثمة عدداً كبيراً من الآيات الكريمة استعرض هذه الفكرة بشكل أو بآخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾- (الأعراف: ٣٤)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ مَا تَسْبِقُ مِن أُمّةٍ أَجَلُهَا وَمَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾- (الحجر: ٤-٥)، إلى غير ذلك من الآيات التي تؤكد أنّ للأمة والمجتمع أجلاً مكتوباً ومحتوماً؛ فكما أنّ موت الفرد يخضع لأجل وقانون، فكذلك الأمم والمجتمعات لها أجالها المضبوطة ضمن قوانين وسنن حاكمة.

٢. العذاب الدنيوي يشمل الجميع: ومن هذه السنن القرآنية، أنّ العذاب الدنيوي عندما يقع، فإنّه لا يختصّ بالظالمين فقط بل يشمل الصالحين كذلك، يقول تعالى: ﴿وَأَتَوْهُا ثِيَةً لَّا تُصِبِّيَنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾- (الأنفال: ٢٥).

٣. شروط النصر: ومن نماذج السنن القرآنية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُوا حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ﴾- (الأنعام: ٣٢). تشير هذه الآية إلى سنة إلهية لا تتبدّل عبر التاريخ، وهي العلاقة القائمة بين النصر ومجموعة من الشروط والقضايا كالصبر والثبات وغيرها، على أنّها كلمات الله التي لا تبدل لها ولا تغيير. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَجِئُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾- (فاطر: ٢٢-٢٣).

٤. التغيير الاجتماعي: من السنن المهمة التي يستعرضها الشهيد السيّد الصدرسيّد هي تلك التي تربط بين التغيير الاجتماعي وتغيير المحتوى النفسي والفكري للإنسان، حيث يتبع تغيير البناء الفوقي (المجتمع) لتغيير القاعدة (المحتوى النفسي)، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ

بحيث يكون ثمة علاقة تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية. تتكوّن هذه العلاقة على شاكلة شرط وجزاء، فمتى تحقق الشرط، تحقق الجزاء. وهذه الصيغة للسنن والقوانين تحفل بها مختلف الساحات الطبيعية والكونية، وكذلك الحال بالنسبة إلى السنن التاريخية، بحيث إنّ عدداً كبيراً منها صيغ في القرآن الكريم على شكل القضية الشرطية التي تربط بين حادثتين اجتماعيتين أو تاريخيتين، يقول تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾- (الجن: ١٦)، إذ تربط الآية الكريمة وفرة الإنتاج بعدالة التوزيع. ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾- (الإسراء: ١٦)، بحيث يربط سبحانه بين فسق المجتمع وانحلال أخلاقه بزواله.

إنّ هذه الصيغ للسنن والقوانين تعدّ موجّهاً عملياً للإنسان في حياته، حيث تتجلى حكمة الله تعالى في مثل هذه العلاقات، فتجعله يتعرّف إلى واقعه وما يدور من حوله، فيأخذ بالرسائل التي يجب أن يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته، والوصول إلى إشباع حاجاته.

٢. القضية الناجزة: هنا، تتخذ السنن التاريخية شكل القضية الفعلية الناجزة المتحققة، تماماً كما هو الحال في القوانين الطبيعية والكونية. فحينما يصدر الفلكي، مثلاً، حكماً بأن الشمس سوف تتكسف في يوم محدّد وعلى ضوء القوانين الفلكية، فتكون هذه قضية علمية لها صفة وجودية ناجزة، وليست على نحو القضية الشرطية. وهكذا الحال بالنسبة إلى السنن التاريخية التي تكون بهذه الصيغة والشاكلة، فقضية الاستخلاف الإلهي للإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾- (البقرة: ٣٠)، هي مثال على هذا الشكل من السنن، والتي لا يستطيع فيها الإنسان أن يغيّر من ظروفها أو أن يعدّل من شروطها؛ لأنّها تخبر عن وقوع هذه الحادثة على أي حال.

هذا الشكل من السنن أوحى للفكر الأوروبي بالتعارض بين فكرتي سنن التاريخ واختيار الإنسان وإرادته. لذا، ذهب بعض المفكرين في مقام الجمع بينهما إلى التفريط بحرية الإرادة الإنسانية، وذهب بعضهم الآخر في اتجاه معاكس وهو التفريط بالسنن التاريخية لمصلحة اختيار الإنسان وحرّيته. لكنّ الشهيد السيّد الصدرسيّد يرى أنّ هذه المواقف كلها خاطئة؛ وذلك لأنّ منشأ التعارض كان وليد قصر النظر وعدم الالتفات إلى الشكل الأوّل منها، والذي تصاغ فيه السنة التاريخية بوصفها قضية شرطية، تعرّف في الغالب عن إرادة الإنسان واختياره، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾- (الرعد: ١١)، وحينما يحتل فعل الإنسان واختياره موضوع الشرط في القضية الشرطية، تصبح السنة التاريخية متلائمة تماماً مع اختياره، لا بل تزيده اختياراً أو قدرة في التصرف في مواقفه وتطلّعاته(٥)، والشكل الثاني هو نتيجة مقدمات عدة منها كوامن الخير للإنسان وتقدير لاختياره واستخراج لإمكاناته، فلو لا خلافة الله الإنسان على الأرض (مورد المثال) لما عرف الإنسان معنى أن يكون قائماً بالقسط مثلاً، ولا الحاكم بأمر الله.

٣. السنة الموضوعية: هي السنة التاريخية المصاغة على صورة اتجاه طبيعي موضوعي في حركة التاريخ، لا على صورة قانون صارم حدي، فهي تتصف بشيء من المرونة، باعتبارها قابلة للتحدي وإن على مدى قصير. أما المتحدّي لها على المدى الطويل، فلا تكون عاقبته إلا الهلاك وعبر سنن التاريخ نفسها. فالعلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة، مثلاً، هي تعبير عن اتجاه موضوعي لما انطوت عليه كينونة كل منهما وطبيعته، وأيّ تحدّ لهذا الاتجاه نحو ألوان الشذوذ التي يرفضها، سيؤدّي إلى فناء المجتمع وخرابه، فضلاً عن خسارة القابليّات التي زُود بها كلّ منهما؛ وذلك لاختلاف الأدوار الطبيعية بينهما. وهذا ما حدث لقوم لوط الذين تحدّوا هذه السنة لفترة من الزمن، ولكنّ العاقبة في النهاية كانت وخيمة. من أهم المصاديق التي يتعرّض لها القرآن الكريم في هذا الشكل من السنن هي الدين؛ إذ يرى أنّه ليس مجرد تشريع وإنما سنة موضوعية من سنن التاريخ، وقانوناً داخلاً في صميم تركيب الإنسان وفطرته، كما في قوله تعالى: ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾- (الروم: ٣٠). وهذه السنة ليست صارمة كالقوانين الطبيعية والكونية التي لا تقبل المخالفة، بل تقبلها على المدى القصير، كما هو الحال مع واقع الإلحاد عند الناس، ولكنها لن تدوم حتّى النهاية، فالعقاب هنا ينزل، كما سنن التاريخ نفسها، على كلّ أمة تريد أن تبدّل خلق الله سبحانه، وخلق الله تعالى لا يقبل تبديلاً ولا تحويلاً.

المصدر: مجلة بقية الله



-وبعد ثمانية قرون- محاولات لفهم التاريخ فهماً عميقاً على أيدي المسلمين، وفي طليعتهم ابن خلدون الذي قام بمحاولة دراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه. ومن بعده بأربعة قرون، اتّجه الفكر الأوروبي في بدايات عصر النهضة إلى فهم التاريخ وفقاً لسننه وقوانينه أيضاً، حيث نشأت على هذا الأساس اتجاهات مثالية ومادية ومتوسطة، ومدارس متعدّدة، قد تكون المادية التاريخية أشهرها وأكثرها تأثيراً في التاريخ نفسه.

■ **خصائص السنن التاريخية**

ذكر الشهيد السيّد الصدرسيّد خصائص ثلاثة للسنن التاريخية:

١. الاطراد: بمعنى أنّ السنة التاريخية مطردة وأنّ أطرافها متلازمة، وليست قائمة على علاقات عشوائية على أساس الصدفة والاتفاق. وكان ذلك تأكيداً من القرآن الكريم على الطابع العلمي لها، بغية خلق شعور واع لدى الإنسان المسلم، يميّكه من تتبّع أحداث التاريخ بصورة واعية بعيداً عن العشوائية والاستسلام. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾- (الأحزاب: ٦٢)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾- (فاطر: ٢٣).

٢. الربانية: أي ربّانية هذه السنة، وارتباطها بالله سبحانه؛ بمعنى أنّ قوانين التاريخ هي قرار ربّاني، مجسّدة لإرادة الله سبحانه، وممثّلة لحكمته وتدبيره في الكون. وهذا كلّ يستهدف ربط الإنسان بالله تعالى، وإشعاره بأنّ أي استفادة له من النظام الكوني وقوانينه وسننه لا تتمّ بمعزل عن إرادته. وهذا التفسير الإلهي للتاريخ يختلف عمّا قدّمته مدارس الفكر اللاهوتي "أوغستين" وغيره للتاريخ؛ إذ إنّ تفسيرهم يتناول الحادثة الجزئية نفسها ويربطها بالله سبحانه، قاطعاً صلتها مع بقية الحوادث التي تزخر بها الساحة التاريخية، بما تمثّل من سنن وقوانين موضوعية. أما ما يعبر عنه القرآن الكريم من وجود روابط وعلاقات بين الحوادث التاريخية، فهو في الحقيقة تعبير عن حكمة الله تعالى، وحسن تقديره وبناءه الكونيّ للساحة التاريخية. وهو ربط بفهم التاريخ بالله تعالى، كي يبقى الإنسان مشدوداً دائماً إليه سبحانه، ويتقى الصلة الوثيقة بين العلم والإيمان.

٣. الانسجام: أي الانسجام بين السنن التاريخية من جهة وإرادة الإنسان واختياره من جهة ثانية. وقد تعرّض القرآن الكريم لهذه الحقيقة في جملة من آياته، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾- (الرعد: ١١)، وهذا ما يؤكّد أنّ السنن التاريخية تجري بإرادة الإنسان.

■ **صيغ السنن التاريخية**

استعرض الشهيد السيّد الصدرسيّد ثلاثة أشكال تتخذها السنة التاريخية في القرآن الكريم:

١. القضية الشرطية: هو الشكل الذي تتخذ فيه السنة التاريخية شكل القضية الشرطية،



- مركز إدارة الحوزات العلمية
- المشرف: رضا رستمى
- رئيس التحرير: على رضا مكتبدار بمساعدة الهيئة التحريرية
- هاتف: +٩٨ ٢٥ ٣٢٩٠٠٥٣٨ • فاكس: +٩٨ ٢٥ ٣٢٩٠١٥٣٣
- ص. ب: ٣٧١٨٥/٤٢٨١
- العنوان: قم، شارع جمهوري إسلامي، زقاق ٢، رقم ١٥
- الموقع: www.ofoghhawzah.ir
- البريد الإلكتروني: info@ofoghhawzah.ir
- تصميم: مرتضى حيدري أهنگري
- مسئول الطبع: مصطفى اويسى • طباعة: صميم +٩٨ ٢١ ٣٢٥٣٣٧٢٥

شعر وقصيدة



•محمد بن أبي علي الأصهباني

آداب طلب العلم وتعليم الناس

اعْمَلْ بعلمك تَعْمَنْ أيُّها الرِّجُلُ لا يَنْفَعُ العِلْمُ إنْ لم يُحَسِّنِ العَمَلُ والعِلْمُ زَيْنٌ وتقوى الله زِينته والمُتَّقُونَ لهم في علمهم شُغْلٌ وُحْجَةٌ الله يا ذا العلم بالغة لا المَكْرَ يَنْفَعُ فيها لا ولا الجَيْلُ تعلِّم العِلْمَ واعْمَلْ ما اسْتَطَعْتَ به لا يُلْهِئُكَ عنه الهُؤُ والجدَلُ وعِلْمُ الناسِ واقِصْدْ نفْعهم أبداً إِيَّاكَ إِنَّا كَ أن يَعتادَكَ المَلَلُ وعِظْ أخاك بِرفقٍ عِنْدَ زَلَّتِه فالعِلْمُ يعِطِفُ مَن يَعتاده الزَّلَلُ وإن تَكُنْ بَين قوم لا خلاق لَهُم فأَمُرْ عليهم بِمَعروفٍ إذا جَهِلُوا فإن عَصَوْكَ فِراجِعُهم بلا ضَجَرٍ واصْبِرْ وصابِرْ ولا يَحْزُنْكَ ما فَعَلُوا فَكُلُّ شاةٍ بِرِجْلَيْها مَعلَقةٌ عليك نَفْسُك إن جازُوا وإن عَدَلُوا

نصيحة نفسية



أهم خمسة أسباب للتسويق

١- الخوف من الفشل: لا تدع خوفك من الفشل يعرقل خطواتك، اعتبر الأخطاء فرصاً لتعلم والنمو.

٢- عدم القدرة على التنظيم: قم بتحديد أهداف واضحة وقم بتقسيمها إلى مهام صغيرة ومنظمة.

٣- انتظار الظروف المثالية: لا تنتظر الظروف المثالية للبدء في العمل، ابدأ وأعمل على تحقيق أهدافك بالإمكانات والموارد المتوفرة لديك.

٤- إنعدام الثقة في القدرات: ثق بنفسك وقدراتك واستمر في تنمية مهارتك من خلال التعلم والتطوير المستمر.

٥- التشتت وضعف التركيز: تخلص من المشتتات في محيطك وقم بتحديد أولويات واضحة للمهام الهامة.



نرحب بأراء القراء الأعزاء

عبر البريد الالكتروني التالي

Alafagh1444@gmail.com